ازدهار الحركة العمرانية في عهد السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان (ت ٨٣٩-٨٩٣هـ)

الباحث صبري عزاوي عبد أ.د. عثمان عبد العزيز صالح
جامعة الأنبار - كلية التربية للعلوم الإنسانية

المستخلص

تعد دراسة الشخصيات التاريخية المهمة التي حفل بها تاريخ الدولة العربية الإسلامية بمثابة نافذة نطل من خلالها على تلمس ابرز الإسهامات الحضارية التي قدمتها تلك الشخصيات، فضلا عن دراسة الأحداث التي جسدتها وعاصرتها ،لاسيما في تاريخ المغرب الإسلامي الذي حفل بحكام وسلاطين كانت لهم مآثر عظيمة في جميع المجالات السياسية والحضارية ، ومن هنا كانت رغبتي في الكتابة عن أحد حكام المغرب الإسلامي الذي ترك أثرا كبيرا عند توليه الحكم، ألا وهو السلطان أبو عمرو عثمان الحفصي الهنتاتي المصمودي ٨٣٩–٨٩٣هـ، في مدينة تونس بشكل خاص والمغرب الإسلامي بشكل عام

الكلمات المفتاحية: الحفصيين، ابو عمرو ، العمران.

Urban and intellectual aspects during the reign of Sultan Abi Amr Othman (d. 839-893 AH)

Prof.Dr. Othman A. Saleh Researcher Sabri A. Abed
University Of Anbar- College of Education for Humanities

Abstract

The study of the important historical personalities in which the history of the Arab Islamic state was celebrated is a window through which we look to grope the most prominent civilized contributions made by these personalities, as well as studying the events that it embodied and modernized, especially in the history of the Islamic Maghreb that was celebrated by rulers and sultans who had great exploits in all The political and civilizational fields, hence my desire to write about one of the rulers of the Islamic Maghreb, who left a great impact upon assuming power, which is Sultan Abu Amr Othman Al-Hafsi Al-Hantati Al-Masmudi 839-893 in the city of Tunis in particular and the Islamic Maghreb in general.

Key words: Hafsied, Abo Amr, Urban.

المقدمة:

بعد التحري في المكتبات انه لا توجد دراسة مستقلة عنه ، لذا آثرنا الكتابة عنه من اجل إبراز دوره السياسي والحضاري ، فضلا عن ذلك كونه كان يمثل صفحة مشرقة من تاريخ المغرب الإسلامي أيضا، من اجل استكمال النقص في الدراسات التاريخية عن تلك الحقبة، إذ استطاع أن يعيد بناء الدولة وينهض بأعبائها إلى أن أعاد لها الهيبة والقوة، ومما يؤكد نجاحه في بناء الدولة المدة الطويلة التي حكمها وهي ما يقارب أربع وخمسون سنة ، إذ شهدت حقبته الاستقرار السياسي والبناء الحضاري المميز، فضلا عن الانجازات العسكرية والإصلاحات السياسية والاقتصادية و يضاف لها المآثر العمرانية الكثيرة .

وبعد التوكل على الله سبحانه وتعالى، وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهت البحث المتمثلة بقلة المصادر، وضيق الوقت ، ارتأينا دراسة هذه الشخصية البارزة لكي نسلط الضوء ونرسم صورة واضحة المعالم لتلك الشخصية التي كان لها الأثر الكبير في أحداث المغرب العربي الإسلامي .

اقتضت طبيعة هذه الدراسة وما توفر عنها من مصادر ومراجع أن تنقسم إلى سبعة اقسام سبقتها مقدمة ،وفي نهايتها خاتمة واهم ما توصلت له الدراسة من نتائج. تناولت اولا اسمه ودرست في ثانيا نسبه ثم ولادته ثالثا، اما في القسم الرابع فتناولت توليه الحكم، وخصصت خامسا لمكانته، بينما كان سادسا لدراسة وفاته، واختتمت البحث بتناول الجوانب العمرانية.

اعتمدت هذه الدراسة على عدد من المصادر والمراجع كان بعضها ذا فائدة كبيرة ولاسيما المصادر المغربية منها التي قدمت للدراسة مادة علمية سياسية وحضارية وقسم منها كان معاصرا للأحداث مما كان له الأثر في الكشف عن الكثير من الأحداث التي وقعت في مدة الدراسة ، وكان لتنوع المصادر التاريخية أو المصادر الجغرافية وكتب الرحلات والمصادر التي عنيت بتراجم الرجال، فضلا عن المراجع الحديثة الأثر الكبير في إخراج هذه الدراسة على هذه الصورة .

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته :-

عثمان بن محمد بن عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يحيى بن إبراهيم ابن يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر المتوكل على الله نسبة لجده الأعلى أبي حفص.(١)

أما عن نسبه ، فينسب إلى قبيلة هنتاته وهي إحدى قبائل البربر،(٢) من أقوى القبائل، وكبيرة جدا وفي بعضها رياسة وشرف . (٣)

اما كنيته ، أبو عمرو عثمان،(٤) أبو سعيد عثمان،(٥) أبو حفص.(٦)

ثانياً: ولادته :-

ولد أبو عمرو عثمان في أواخر شهر رمضان في تونس من سنة ٨٢١هـ / تشرين الأول ١٤١٨م(٧)، ويحدد الزركشي يوم ولادته بالتحديد بأنه ولد في ٢٧ رمضان سنة ٨٢١هـ. (٨)

ثالثاً: لقبه :-

تعددت الألقاب التشريفية التي أتخذها سلاطين بني حفص ومنهم السلطان أبو عمرو عثمان فقد تلقب بـ المتَوَكل على الله الهنتاتي(٩) ، وتلقب بأمير المؤمنين،(١٠) والإمام ،(١١) والسلطان ،(١٢) كما تلقب أبو عمرو عندما تسلم زعامة الحفصيين بالخليفة الذي أصبح لقباً تقليدياً لدى العائلة الحفصية(١٣)، ومن ألقابه الأخرى ،المؤيد بنصر الله، الواثق بالله والمجاهد في سبيل الله ، ابن الأمراء الراشدين .(١٤)

رابعاً: توليه الحكم:-

بعد وفاة السلطان أبي فارس سنة (٨٣٧/١٤٣٤م) تولى حفيده أبو عبدالله محمد المنتصر وجددت له البيعة في سنة (٨٣٨هـ/١٤٣٥م) وسار على الطريق نفسه الذي سلكه جده أبو فارس إلا إنه لم يهنأ كثيراً في الحكم اذ توفي السلطان محمد المنتصر إثر مرض لازمه عند سفره إلى مدينة قفصة(١٥) فرجع إلى تونس فبقي مدة يعاني من هذا المرض إلى أن توفي في ليلة الجمعة الثانية والعشرين من شهر صفر سنة (٨٣٩هـ/١٤٣٥م) فكانت مدة حكمه عاماً واحداً وشهرين وأحد عشر يوماً(١٦)، و تسلم مقاليد الحكم في الدولة الحفصية شقيقه أبو عمرو عثمان .

وقد انفرد ابن تغري بردي[١٧] بذكر رواية مفادها ان الامير ابو عمرو عثمان قد تولى الحكم ومعه قائده محمد الهلالي وصار اليه مرجع امور الدولة كلها بعد ان حجب اخيه السلطان محمد المنتصر عن كل احد وأودع في القصر ثم غلقت عليه الابواب ليوهم الناس انه نائم او منعزل مريضا فدخل المدينة اي الحاضرة تونس واستولى على الحكم وقائده محمد الهلالي قائم بين يديه فلما استقام له الامر قضى على القائد محمد الهلالي فسجنه، اما اخيه السلطان محمد المنتصر وبذلك نصب نفسه ابو عمرو عثمان سلطان على الدولة الحفصية.

ويرى الباحث ان مفاد هذه الرواية ضعيف لانه لم تذكر المصادر المغربية الاخرى لاسيما التي كانت معاصرة لتلك المدة بان الامير ابو عمرو عثمان قد تولى الحكم بهذه الطريقة، اذ استمر حكمه حوالي اربع وخمسون عاما. وبعد وفاته أُسندت ولاية العهد لحفيده وولي عهده أبي عبدالله محمد المسعود في شهر شعبان سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م،[١٨] وبعد وفات ابي عبد الله المسعود أسندت ولاية العهد لولي عهد جديد هو أبو زكريا يحيى محمد المسعود الذي كان يشغل في ذلك الوقت واليا على قسنطينة، اذ دخلت الدولة الحفصية في دوامة الفتن والاضطرابات والثورات خصوصا بعد أن ثار على السلطان الجديد أبي زكريا يحيى بن محمد المسعود ، ابن عمه عبد المؤمن بن إبراهيم .[١٩]

خامساً: مكانته :-

أن لقوة شخصية السلطان وبُعد نظره ومعرفته لمواطن الحزم ومواطن اللين أثر كبير في إمساكه بزمام السلطة في البلاد ، وكذلك حرص السلاطين على مصالح الرعية والاهتمام بكل ما هو نافع ، وكان للسياسة الدينية التي اتبعها عظماء سلاطين بني حفص أثر كبير في علو مكانتهم عند شعبهم ، فقد كانت نزعة التدين تغلب على الشعب الحفصي ، لذا احتلّ أبو عمرو عثمان بن محمّد مكانة سامية ورفيعة بين الجميع ، مما جعل الكثير يثنون بما عُرف عنه بسيرته المحمودة وعقليته الفذة[٢٠]، وكان عالماً فاضلاً مشهوراً، وكان قاهراً للأعراب وله معهم وقائع مشهورة، ومساع محمودة مأثورة .[٢١]

ويقول عنه برنشفيك ما نصه : "أعظم وأقدر وأثرى ملك من الملوك المغاربة"[٢٢]، ويعتبر من عظماء بني حفص وخاتمة القوة والازدهار في دولتهم[٢٣]، واثنى عليه ابن ابي دينار بقوله: "هو ختام الدولة الحفصية ونظام المحاسن الفاخرة في البلاد الأفريقية"[٢٤]، ولم يعط هذا الوصف والمديح اعتباطاً إذ أن الدولة الحفصية كانت تعاني من التفكك وكادت أن

تسقط إلا أن السلطان أبا عمرو استطاع أن يجدد روح العزيمة في مواجهة كل الأخطار المحدقة.[٢٥]

سادساً: وفاته :-

توفي السلطان أبو عمرو عثمان الحفصي في صبيحة يوم السبت ٢٩ من شهر رمضان سنة ٨٩٣ هـ/١٤٩٥م[٢٦]، في مدينة تونس بعد حكم دام أربعة وخمسين عاماً[٢٧]. وطالت أيام حكمه عما كان من سابقيه من السلاطين، ورغم عدم ذكر المصادر التاريخية لتشييع جنازته ودفنه، إلا انه تم دفنه في تربة أبائه وأجداده في مقبرة الشيخ محرز بن خلف ، وهذه المقبرة يدفن بها سلاطين بني حفص ، وعدد من العلماء والفقهاء ، وبذلك تكون ولادته ووفاته في شهر رمضان المبارك ، كان السلطان أبو عمرو عثمان شخصية تركت بصمة كبيرة في البلاد التونسية على وجه الخصوص والبلاد العربية الإسلامية بشكل عام.[٢٨]

سابعاً: الجوانب العمرانية في عهده:-

ازدهرت مظاهر الحضارة والعمران في المغرب على عهد الحفصين والذين أولوا هذا الجانب اهتمام كبير من قبل جميع السلاطين الحفصين ولاسيما السلطان أبو عمرو عثمان ، واهم ما يميز ازدهار الحركة العمرانية في الدولة الحفصية هو تأثرهم بالحضارة الأندلسية إذ عملوا على نقلها وطبقوها في مساجدهم وقصورهم فحسب ،وأدناه أهم المظاهر العمرانية في عهد السلطان أبي عمرو عثمان .

١: المساجد والجوامع:

أولى السلطان أبو عمرو عثمان عناية كبيرة ببناء المساجد إذ إنها كانت منارا للعلم ومكانا للعبادة ، ومنها جامع سيدي جعفر بالتبانين (جامع باب الأقواس) ٨٥٥هـ/١٤٥١م ،الذي ذكره الزركشي[٢٩] قائلا :)) وفي أوائل ربيع الثاني من سنة خمسة وخمسين وثمانمائة أحدث بتونس خطبة ثامنة بجامع سيدي جعفر بالتبانين بربض باب السويقة[٣٠] ((، ويعرف هذا الجامع أيضا بجامع النفافته ،وهي من الأسماء الأولى للمسجد قبل أن يتحول إلى مسجد جامع ،واسم النفافته نسبة إلى عائلة النفافته التي تولت إمامة المسجد،[٣١] ويسمى بجامع التبانين لوقوعه بحي التبانين اذ كان يباع التبن فيه هناك ،وعرف بجامع باب الأقواس لوقوعه بالقرب من باب الأقواس،[٣٢] (ينظر ملحق رقم١ ص١٥٦) بناه السلطان أبو عمرو عثمان سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م، وكان في البداية مسجدا للفروض وتم تحويله إلى مسجد جامع .[٣٣]

أما عن تخطيط هذا الجامع ، فأنه يشغل مساحة تبلغ نحو ٥٨٣ متر ، وتخطيطه عبارة عن رواق للصلاة تحيط به مجموعة من الوحدات الخدمية التابعة للجامع ، وتم تشيده بالأحجار وتم صنع الشبابيك والأبواب من الخشب ، واستخدام الرخام في كسوة المحاريب ، يشغل صحن الجامع مساحة شبه مستطيله من الشمال إلى الجنوب يبلغ طوله ١١,٧٧ متر وعرضه من الجنوب ٧,٢٥ متر ومن الشمال ٦,٨٥ متر، أما رواق الصلاة يشغل مساحة شبه مربعة يبلغ قياسها من الشمال إلى الجنوب ١٦ متر ومن الشرق إلى الغرب ١٦,٣٥ متر ويتكون من خمس بلاطات موازية لجدار القبلة .[٣٤]

وفي سياق اهتمام السلطان أبو عمرو عثمان (٨٣٩-٨٩٣هـ/١٤٣٥-١٤٨٨م)بالمساجد والجوامع وحرصا منه على تقديم وسائل الراحة للمصلين ، فقد أمر السلطان في شهر ذي القعدة سنة ٨٧٦هـ/١٤٦٤م بعمل القلاع (اي المضلات) في جامع الزيتونه في الحاضرة تونس ، ليقي المصلين في يوم الجمعة من حرارة الشمس في فصل الصيف .[٣٥]

٢: الكتاتيب :

يمكن تعريف الكتّاب))بأنه موضع تعليم الكتاب أي الكتابة والجمع الكتاتيب والمكاتب[٣٦]((، لقد أدت الكتاتيب دورا كبيرا في نشر التعليم ، ساعدها على ذلك بساطة مبنى الكتاب، اهتم السلطان أبو عمرو عثمان (٨٣٩-٨٩٣هـ/١٤٣٥-١٤٨٨م) بنشر التعليم بين السكان، فقام ببناء ثلاثة مكاتب لتعليم القراءة والكتابة والقران الكريم، إحداهما قبلي الجامع الأعظم ،جامع الزيتونة في مدينة تونس واثنان بربض باب المنارة.[٣٧]

٣ : المدارس

يعد السلطان أبو عمرو عثمان من السلاطين الحفصين الذين أولوا اهتماما كبيرا للعلم والعلماء وذلك من خلال بناء دور العلم بدءا من الكتاتيب والمدارس والزوايا وإيقاف ما تحتاج له من المستلزمات التي تساعد على النهوض بالعلم فيها ، وخير دليل على ذلك اهتمامه ببناء المدارس ومنها .

أ-المدرسة المنتصرية:

المدرسة التي شرع في بنائها السلطان الحفصي أبو عبدالله محمد المنتصر(٨٣٧-٨٣٩هـ) في سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤ ، وتسمى المدرسة المنتصرية نسبة إلى مؤسسها السلطان

أبي عبدالله محمد المنتصر والذي لم يستطع من إتمامها بسبب وفاته سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م، فقد أتمها شقيقه السلطان أبو عمرو عثمان سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م ،[٣٨] تقع هذه المدرسة بالقرب من سوق الفلقة بتونس ، وكان بنائها متقنا ، وأوقف عليها ما يكفيها .[٣٩] (ينظر ملحق رقم ٢ ص١٥٧)

ب- المدرسة العثمانية :

تعد من مآثر السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان (٨٣٩-٨٩٣هـ/١٤٣٥-١٤٨٨م) بدأ البناء في هذه المدرسة سنة ٨٤٠هـ/١٤٤٠م، وفرغ من بنائها سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٤م، وكانت في غاية الحسن والإتقان ، وتقع قرب دار الفقيه محرز بن خلف(٣٦٥-٤١٣هـ) ، في باب السويقة ، بالدار التي تعرف بدار صولة ،[٤٠] وجعل فيها مسجدا للصلاة ، ودروسا لقراءة العلم، ورباطا لسكن الطلبة ، وأوقف عليها أوقافا كثيرة ويكفي كل من بها، وجعل فيها سماطا(اي طعاما) مستمرا ،فضلا عن ماء للسبيل،[٤١] وسميت هذه المدرسة بالمدرسة العثمانية نسبة إلى مؤسسها السلطان أبي عمرو عثمان،[٤٢] وتسمى أيضا بالمدرسة الجديدة.[٤٣]

ج-مدرسة القائد نبيل:

يرجع تأسيس هذه المدرسة إلى القائد نبيل أبي قطاية (ت٨٥٧هـ) والذي يعد من القادة الكبار ومن ذوي النفوذ في عهد السلطان أبو عمرو عثمان[٤٤]، ويذكر الزركشي،[٤٥] إن السلطان أبا عمرو عثمان في شهر ذي الحجة من عام ٨٥٠هـ/١٤٥٠م،)) فرغ من البناء من المدرسة الكائنة شرقي باب ينتجمي أحد أبواب القصبة وهي التي أحدث بنائها القائد نبيل أبو قطاية((يفهم من هذا النص إن القائد نبيل أبا قطاية شرع في بناء هذه المدرسة ،لكنه لم يستطع إكمالها ، وإنما الذي أكملها هو السلطان أبو عمرو عثمان سنة ٨٥٠هـ، ولم تذكر المصادر سبب ذلك .وعند وفاة القائد نبيل سنة ٨٥٧هـ ، تم دفنه في المقبرة التي أعدها في المدرسة . [٤٦]

٤ :الزوايا :

تميزت مدينة تونس بوجود الزوايا وهي على نوعين ،الأولى منها تسمى الزاوية المبيت ، ومهمتها إيواء المسافرين الذين يباغتهم الليل، والنوع الأخر من الزاويا هي التي يوجد فيها قبر لأحد الصالحين والتي يقصدها الناس للتبرك والزيارة،[٤٧] بل كانت أيضا للمبيت

وتقام فيها حلقات علمية في العلوم المختلفة ولاسيما الدينية منها ،وأنشأت الزاوية المبيت لأول مرة في عهد السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز (٧٩٦-٨٣٧هـ) ،على أبواب الحاضرة تونس لإيواء المسافرين، بل كانت تعد دار للضيافة ومأوى للفقراء والمساكين.(٤٨)

أما في عهد السلطان أبي عمرو عثمان (٨٣٩-٨٩٣هـ/١٤٣٥-١٤٨٨م) فقد تواصل العمل ببناء الزوايا على الطرق المؤدية إلى مدينة تونس وهي بمثابة المراحل التي يستريح بها المسافر ، ففي سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠ تم بناء الزاوية التي تقع بعين الزميت، على الطريق الذي يمتد من الحاضرة تونس إلى الغرب ،وهو الطريق الذي يرتاده المسافرين ،بين مدينة تونس ومدينة باجة ، بنى السلطان فيه مسجدا تقام فيه الصلاة، وكان يعمل بها سماطا يوميا للمقيمين فيها والوافدين اليها. (٤٩)

أما الزاوية الأخرى التي بنيت في سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م هي زاوية الفندق فوق غابة شريك قبلي جبل زغوان ،وهذه الزاوية لمبيت القادمين من ناحية تونس أو من جهة القيروان وحبس عليها ما يقوم بها، (٥٠)

ومن الزوايا التي أقامها السلطان أبو عمرو عثمان هي الزاوية التي كانت تحت المدرسة بالدار المعروفة بدار صولة جوار دار الفقيه محرز بن خلف (٥١)،وكذلك قيامه ببناء زوايا عدة كان لها أثرا دينيا واجتماعيا مهما ، ومنها زاوية أبي الحداد وزاوية المنهلة وزاوية قرناطة بالمكان المعروف بين قفصه وتوزر وزاوية بسكرة وزاوية التومي.(٥٢)

وكان للموقع الذي تتميز به هذه الزاوية الأثر المهم ، ليس من الناحية الدينية فحسب بل من الناحية الاجتماعية والأمنية أيضا، إذ أن المناطق الموجودة بين تونس والقيروان والطرق المؤدية اليها ووجود مثل تلك المؤسسات قد يعطي الأمن والطمأنينة للواردين من التجار للاطمئنان على ممتلكاتهم ، وذلك من خلال وجود أماكن يوجد فيها خدمات يمكنهم من أخذ الراحة فيها لبعض الوقت، فضلا عن كونها ملجأ لهم لغرض المبيت والتزود بالماء والطعام .(٥٣)

وكان لانتشار التصوف بين سكان تونس والمغرب بشكل عام أثر كبير في انتشار الزوايا والتي كانت بمثابة بيوتا للزهاد يؤدون بها عباداتهم وأذكارهم وعلومهم فضلا على إنها كانت محطة استراحة للمسافرين والمحتاجين والغرباء ، وكانت لها أوقافا كثيرة سواء كانت من الدولة أم من أهل اليسر.

٥ :المنشات المائية (الأسبلة)

انطلاقا من الحرص والمسؤولية الملقاة على عاتق السلطان أبو عمرو عثمان (٨٣٩-٨٩٣هـ/١٤٣٥-١٤٨٨م) في تقديم أفضل الخدمات للناس ، فكانت من ابرز انجازاته العمرانية والاجتماعية هي إقامة اسبلة الماء في أماكن متفرقة في المدن من أجل توفير الماء للسكان، ومن هذه الاسبلة هو سبيل الماء بزاوية سيجوم لينتفع به المسافرون والواردون عليها ويأمنون على دوابهم ورحالهم وأنفسهم من أي سوء ،وكان أعمارها أعمارا زاهرا. [٥٤]

وكذلك قيام السلطان أبي عمرو عثمان ببناء السابلة شرق صومعة جامع القصبة[٥٥] ،سبيلا للعطاش والدواب،[٥٦] وذلك لوجود مناطق وأماكن يكون فيها الماء قليل فقد كان حرص السلطان أبو عمرو عثمان على إنشاء السبيل فيها، لذا أمر بإنشاء السبيل قرب المارستان ، وليكون سبيلا للعطشى ،[٥٧] كذلك قام السلطان أبو عمرو عثمان ببناء المصاصة التي تقع شرقي جامع الزيتونة وتكون لشرب الناس ، إذ اوجد فيها جعابا تكون هذه الجعاب مصنوعة من النحاس ويجذب فيها الماء إلى الذي يشرب عن طريق النفس أي سحب الماء اليه. [٥٨]

ومن أعماله الأخرى في هذا المجال هي بناؤه للسقاية بإزاء باب الجبلية بين بابي برج الاونقي بتونس وجلب اليها الماء من مكان يسمى أم الوطاء خارج تونس،[٥٩] وكذلك عمل على إصلاح السبيل الذي يوجد في جامع الزيتونة من الجهة الشرقية وذلك في سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م وأرخ هذا العمل نقش كتابي على السبيل، وفي أواسط سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م قام ببناء ماء سبيل بالقرب من الأسواق في تونس، وبنى أيضا في سنة ٨٨١هـ/١٤٧٦م فسقية بباب علاوة في تونس وجلب اليها الماء من هنشير[٦٠] حمزة .[٦١]

٦ : ميضأة السلطان :

من الأعمال المهمة التي قام بها السلطان أبو عمرو عثمان (٨٣٩-٨٩٣هـ/١٤٣٥-١٤٨٨) ببناء الميضأة التي سميت الميضأة السلطانية أو ميضأة السلطان، نسبة له ، والتي تقع في درب ابن عبد السلام وهي على مقربة من الجامع الأعظم جامع الزيتونة في مدينة تونس، إذ بدأ العمل ببنائها سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م،[٦٢] استمر العمل بها إلى ما يقارب

السنتين، إذ انتهى العمل بها سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م ، وأوقف لها السلطان أوقافا لكل ما تحتاجه في مجال البناء والإدارة.(٦٣)

وامر السلطان أبو عمرو عثمان بتسخين الماء في هذه الميضأة في فصل الشتاء،(٦٤) وذلك من أجل توفير أفضل الخدمات لمرتادي هذه الميضأة .

ووصِفت وأُعجبَ ببنائها العديد من المؤرخين الذين زاروها وتحدثوا عن عمارتها فقد وصفها ابن الشماع قائلا:))في غاية الإتقان والفخامة...جوفي الجامع الأعظم...وأوقف عليها وقفا كافيا لمؤنتها ومن يقوم بها ، فكان بها منفعة عظيمة (٦٥).((

وقد وصفت بأنها هائلة، وغاية الإتقان ،(٦٦) أما الدولاتلي تحدث عن الميضأة قائلا: إنها تتكون من سقيفة ويليها دهليز وينتهي هذا إلى الصحن ،وقبل أن يتم الدخول إلى داخل الصحن هناك قوس كبير يفتح نحو الجهة اليمنى ، كذلك هناك بناء يأخذ الشكل المثمن صغير الحجم ومزود بنافورة رئيسية للمياه، وفيها حنفيات من النحاس تلتقي بواجهة المثمن وهناك أحواض تلتقي أيضا بالمثمن لنقل المياه من الحنفيات النحاسية ومن ثم يتم تصريف هذه المياه إلى أماكن خاصة لتصريفها ، وتكون هذه مغطاة بألواح من المرمر المثقب، كذلك هناك مصاطب من المرمر لجلوس الأشخاص أمام كل حنفية عند الوضوء إذ يمكن ويضع رجليه في السانية المستخدمة لتصريف المياه الزائدة من الوضوء .(٦٧)

وكان للتأثير المشرقي المعماري أثر واضح في تصميم وبناء الميضأة السلطانية، لاسيما التأثير المعماري المصري المملوكي ، بسبب معاصرة دولة المماليك للدولة الحفصية من الناحية الزمنية ،إذ ظهرت بعض المعالم المعمارية والألوان المنبثقة من العمارة المصرية التي كانت شائعة في مصر أثناء تلك المدة في عهد المماليك ولم يكن معمول بها من قبل في المغرب الأدنى ، ومثال ذلك تناوب الألوان الأبيض والأسود في الأقواس التي كانت ظاهرة وبارزة في هيكل الميضأة، فضلا عن ألوان المرمر المستخدم كانت ألوان مشرقية وإضافة إلى بعض الزخارف على الجدران والبلاطات.(٦٨)

٧: التأثيرات المعمارية الأندلسية على فن العمارة في المغرب الأدنى

كان التداخل الحضاري قائم بين المغرب الأدنى وخصوصا الحاضرة تونس وبين الأندلس كبيرا بين الطرفين، الا انه اصبح ذو تاثير اكبر بعد الهجرات الأندلسية التي هاجرت نحو المغرب ولاسيما المغرب الأدنى ، بسبب الأوضاع السياسية في الأندلس والذين عملوا

على نقل الحضارة الأندلسية إلى المغرب والتي كان لها الأثر الكبير في ازدهار المغرب الأدنى في جميع المجالات ومنها المجال العمراني إذ عمل المعماري الأندلسي على نقل فن العمارة الأندلسية إلى المغرب الأدنى، والذي ظهر واضحا على فن العمارة في المغرب ولاسيما الحاضرة تونس، ومثال ذلك نلاحظ ظهور واضح للعمارة الأندلسية على منشآت الأعمدة الظاهرة في سوق القماش الذي تم تشييد وتوسيع الكثير منه في عهد السلطان أبو عمرو عثمان الحفصي ٨٣٩هـ/١٤٣٥م .[٦٩]

كذلك تأثرت الكثير من تصاميم العمران في القصور والحدائق والبساتين في الحاضرة تونس بفن العمارة الأندلسية وهناك مالا يقل عن أربعمائة من الحدائق المنتشرة في تونس التي لها نفس التصاميم المعمارية الأندلسية .[٧٠]

النتائج :

بعد أن من الله علينا في انجاز كتابة الرسالة التي عنيت بدراسة واحدة من الشخصيات الكبيرة في المغرب العربي ألا وهو السلطان أبو عمرو عثمان الحفصي لابد من الإشارة إلى ابرز الاستنتاجات التي تمخضت عنها .

- تميز السلطان أبو عمرو عثمان بأنه شخصية قوية لها ثقل تاريخي من خلال فكره الثاقب في التعامل مع بعض الصعاب واثبات نجاحه العسكري في بناء دولة قوية من بعد الضعف وعدم الاستقرار التي كانت تمر بها الدولة الحفصية، وتمكنه من القضاء على كافة التمردات والتحديات التي واجهته ولاسيما في المدة الأولى من حكمه ، سواء أكانت هذه التحديات من داخل البيت الحفصي أم من بعض الأقاليم التابعة للدولة مثل بجاية وتلمسان .
- كشفت الدراسة اهتمام السلطان بالجانب العمراني ،وظهر هذا واضحا من خلال اهتمامه بتوسعة وبناء المساجد والجوامع والمدارس ،فضلا عن الميضأة التي تعرف باسم ميضأة السلطان ، و بنائه ثلاث مدارس للعلم إحداهما تعرف بالمدرسة العثمانية نسبة له، وقيامه ببناء ثلاث كتاتيب .

-الاهتمام الواسع للسلطان بالعلم والعلماء من خلال بناء أماكن العلم من كتاتيب ومساجد و مدارس فضلا عن الزوايا العديدة وأقام لها الأوقاف الكافية وتوفير أماكن لمبيت الطلبة ، وإنشائه خزانة الكتب التي وضعها في جامع الزيتونة .

-استطاع السلطان أبو عمرو عثمان أن يعيد بناء الدولة وينهض بأعبائها إلى أن أعاد لها الهيبة والقوة ، ومما يؤكد نجاحه في بناء الدولة المدة الطويلة التي حكمها وهي ما يقارب ثلاث وخمسون سنة .

الاحالات

[١]. ابن الشماع ،الأدلة البينة،ص ١٢١ ؛السخاوي ، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان (ت ٩٠٢هـ) ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت ، ج٥ ، ص١٣٨ ؛التبر المسبوك في ذيل السلوك،تحقيق نجوى مصطفى كامل ،مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ،٢٠٠٢،ج١،ص٢٦٢ ؛ ابن شاهين ،زين الدين عبد الباسط (ت٩٢٠هـ) نيل الأمل في ذيل الدول ،تحقيق ،عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية للطباعة،ط١ ،بيروت ،٢٠٠٢،ج٨،ص ١٢٢ ؛محيسن ، محمد سالم (ت : ١٤٢٢هـ) ، معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ ، ط١ ، دار الجيل – بيروت ١٩٩٢ ، ج٢ ، ص٢٢٩ .

[٢]. السخاوي ، الضوء اللامع ،ج٥،ص١٣٨؛ السيوطي،جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر(ت٩١١هـ) لب اللباب في تحرير الأنساب، دار صادر ،بيروت ،ص٢٨٠ ؛الشوكاني،محمد بن علي بن محمد (ت١٢٥٠هـ) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ،دار المعرفة ، بيروت ، بلا ،ج١،ص٤١٤ ؛ابن العماد الحنبلي،شذرات الذهب ،ج٩،ص٥٣٢ .

[٣]. المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ،ص٤٥؛ النويري ، نهاية الأرب ،ج٢٤،ص٢٨١ ؛الذهبي ، تاريخ الإسلام ،ج٣٦،ص١١٥؛ابن خلدون، العبر،ج٦،ص٣٦٠ .

[٤]. ابن الشماع ، الأدلة البينة،ص١٢١ ؛الرزكسي ،تاريخ الدولتين ،ص١٣٤ ؛السخاوي،وجيز الكلام، ج٣ ،ص١٠٦١؛ابن القاضي ، درة الحجال ،ج٣ ،ص٢١٠ ؛ الباجي، الخلاصة النقية،ص١٩٨

[٥]. السخاوي ، وجيز الكلام،ج٣،ص١٠٦١ ؛الضوء اللامع ،ج٥ ،ص١٣٨ .

[٦]. السخاوي ، وجيز الكلام ،ج٣،ص١٠٦٢ ؛ابن القاضي ، درة الحجال ،ج٣،ص٢١٠ .

[٧]. السخاوي ، الضوء اللامع،ج٥ ،ص١٣٨ ؛الشوكاني ، البدر الطالع ،ج١، ص٤١٤ ؛ برنشفيك، روبار ، تاريخ افريقية في العهد الحفصي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ١٩٨٨،ج١، ص ٢٧٢ .

[٨]. تاريخ الدولتين ، ص١٣٤ .

[٩]. السخاوي،وجيز الكلام ،ج٣،ص ١٠٦١؛ابن شاهين،نيل الأمل ،ج٦،ص٢٠١و٢٥٤؛الشوكاني ،البدر الطالع، ج١ ، ص٤١٤ ؛ السيد ، فؤاد صالح ، معجم ألقاب السياسيين في التاريخ العربي والإسلامي ، مكتبة حسين العصرية ، بيروت ٢٠١١ ، ص٧١٣ .

[١٠]. ابن الشماع ، الأدلة البينة،ص١٢١ ؛ عجلان ، عامر حسن احمد ،ألقاب الحكام الحفصين–النشأة والتطور – دورية كان التاريخية ، السنة العاشرة، العدد السابع والثلاثون، سبتمبر ٢٠١٧، ص ١٢٩ .

[١١]. ابن الشماع ، الأدلة البينة، ص١٢١ ؛ عجلان ،ألقاب الحكام الحفصين ،ص١٢٩ .

[١٢]. ابن شاهين ،نيل الأمل ،ج٨،ص١٢٢ ؛الزركشي ، تاريخ الدولتين ،ص١٣٤ .

[١٣]. برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج١، ص ٢٧٢ ؛ عجلان،ألقاب الحكام الحفصين ،ص١٢٩ .

[١٤]. عجلان ، ألقاب الحكام الحفصين ، ص١٢٩ ،

[١٥]. قفصة: وهي بلدة صغيرة في طرف افريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام ،لها سور ، وفيها بساتين النخيل والزيتون والتين والعنب والتفاح، وهي أكثر بلاد افريقية فستقا ومنها يحمل الى جميع نواحي افريقية والأندلس ، وتمير القيروان بأنواع الفواكه. اليعقوبي ، أبو يعقوب احمد بن إسحاق ، (ت بعد ٢٩٢هـ) ، البلدان، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٢هـ ، ص١٨٨ ؛ ياقوت الحموي،معجم البلدان ج٤، ص ٣٩٣ ؛ ابن عبد الحق البغدادي ،مراصد الاطلاع، ج٣، ص ١١١٣.

[١٦]. ابن الشماع ، الأدلة البينة ، ص١٢١ ؛ ابن أبي دينار ، المؤنس ،ص١٧٧ .

[١٧]. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج١٥ ، ص١٩٨ .

[١٨]. الباجي ، الخلاصة النقية ، ص٨٣؛ المطوي ، السلطنة الحفصية ، ص٦٤١ .

[١٩]. برنشفيك ، تاريخ افريقية في العهد الحفصي ، ج١ ، ص٣٠٦ .

[٢٠]. محيسن ، معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ ، ج٢ ، ص٢٢٩ .

[٢١]. مقديش ، نزهة الأنظار، ج١ ، ص٦٠٢ .

[٢٢]. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، ج١ ، ص٣٠٦ .

[٢٣]. ابن أبي الضياف ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج١ ، ٢٤٨ .

[٢٤]. المؤنس ، ص١٨٠ .

[٢٥]. حقي ، إحسان ، تونس العربية ، دار الثقافة ، بيروت ، بلا ت ، ص٨٤ .

[٢٦]. السخاوي ، الضوء اللامع،ج٥،ص١٢٣–١٢٤؛ابن القاضي ،أبو العبّاس أحمد بن محمّد المكناسى (ت ١٠٢٥ هـ) ، درّة الحجال في أسماء الرّجال ، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور ، ط١ ، دار التراث القاهرة ١٩٧١ ، ج٣ ، ص٢١٠ ؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص١٨٠ ؛الشوكاني، البدر الطالع،ج١،ص٤١٥ .

[٢٧]. ابن شاهين ،نيل الأمل،ج٨،ص١٢٢؛السيد ، معجم ألقاب السياسيين في التاريخ العربي والإسلامي، ص٧١٣ .

[٢٨]. الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص٣٤ .

[٢٩]. تاريخ الدولتين ، ص ١٤٤ .

[٣٠]. الربض :هو سور للمدينة وما حولها من خارج ، ويقال نزلوا في ربض المدينة والقصر أي ما حولها من المساكن .ابن منظور ، لسان العرب ، ج٧، ص١٥٢؛ الزبيدي ، تاج العروس ،ج١٨، ص٣٣٠. وربض باب السويقة هو احد الارباض الموجودة في مدينة تونس ،نسبة الى السوق المسمى السويقة، يقع في الناحية الشمالية للمدينة ، وتستحدث الارباض عادة نتيجة لازدياد عدد سكان المدينة،فقد كان عدد منازل ربض باب السويقة في العهد الحفصي أكثر من ألفي منزل ، ويشتمل هذا الربض على أبواب عدة منها باب الخضراء وباب أبي سعدون وباب الأقواس الى جانب باب السويقة ، وفيه جامع أبي محمد المرجاني وجامع سيدي جعفر وفيه معالم عمرانية أخرى .المراكشي ، المعجب ،ص٢٥٢؛ ابن الشماع ، الأدلة البينة، ص٣٨وص١٠٨؛ الزركشي، تاريخ الدولتين ، ص١٤٤ ؛ برنشفيك ، تاريخ افريقية في العهد الحفصي ،ج١، ص٣٧٣ ؛ كربخال ، أفريقيا ، ج٣،ص٢٠ .

[٣١]. ابن عامر ، الدولة الحفصية ، ص ١٠٦ ؛ ابن الخوجة ،محمد، تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد ، تحقيق الجيلاني بن الحاج يحي وحمادي الساحلي ، ط٢، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ١٩٨٥ ، ص ١٣٦ .

[٣٢]. ابن الخوجة ، تاريخ معالم التوحيد ، ص ١٣٦؛ الدليمي ، مدينة تونس ، ص ١٨٧ .

[٣٣]. الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ١٤٤ ؛ ابن الخوجه ، تاريخ معالم التوحيد، ص ١٣٦-١٣٧.

[٣٤]. عجلان ، عامر حسن أحمد ، المساجد الجامعة بمدينة تونس في العصر الحفصي دراسة اثارية معمارية ، رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة سوهاج ، كلية الآداب ، ٢٠١١، ص ٢٣٧-٢٤٠ ؛ الدليمي ، مدينة تونس، ص ١٨٨.

[٣٥]. الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ١٥٥ ؛ الوزير السراج ، الحلل السندسية ، ص ٣٢٢ .

[٣٦]. ابن منظور ، لسان العرب ، ج٢، ص١٩٣ .

[٣٧]. باب المنارة : هو احد أبواب مدينة تونس ،سمي بهذا الاسم لأنه كان بجداره مشكاة لهداية أبناء السبيل، من أهم المعالم العمرانية الموجودة في هذا الباب، مصلى العيدين خارج باب المنارة بتونس، ابن الشماع ، الأدلة البينة ، ص١٢٥ ؛ ابن أبي دينار، المؤنس ، ص١٨٧ .

[٣٨]. ابن الشماع ، الأدلة البينة ، ص ١٢٠ .

[٣٩]. ابن الشماع ، الأدلة البينة ، ص ١٢٠ ؛ ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ١٧٨ .

[٤٠]. الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ١٣٦، ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ١٧٨ .

[٤١]. ابن الشماع ، الأدلة البينة ، ص١٤٢ ؛ ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ١٧٨ .

[٤٢]. الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص١٤٠؛ الطويلي ، تاريخ مدينة تونس ، ص ٥٦ .

[٤٣]. القلصادي ، أبي الحسن علي (ت٨٩١هـ) رحلة القلصادي ، تحقيق محمد أبو الأجفان ، تونس، ١٩٧٨، ص١١٢؛ الدليمي، مدينة تونس ، ص٢٤٢-٢٤٣ .

[٤٤]. برنشفيك ، تاريخ افريقية في العهد الحفصي ، ج١، ص٣٨٢ .

[٤٥]. تاريخ الدولتين ، ص ١٤٢ .

[٤٦]. الزركشي ، تاريخ الدولتين ،ص ١٤٧ ؛المطوي ، السلطنة الحفصية ، ص٦٢٦ .

[٤٧]. الدولاتلي ، مدينة تونس ، ص١٤١؛ الدليمي، مدينة تونس، ص١٨٩ .

[٤٨]. ابن الشماع ،الأدلة البينة ، ص١٢٨ ؛ الدولاتلي ، مدينة تونس،ص ١٤١ .

[٤٩]. ابن الشماع ، الأدلة البينة ، ص ١٢٤؛ الزركشي ،تاريخ الدولتين ،ص ١٣٦و١٤٤ .

[٥٠]. الزركشي ، تاريخ الدولتين ،ص١٣٦ و١٤٤ .

[٥١]. الزركشي ، تاريخ الدولتين ،ص ١٣٥ .

[٥٢]. الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ١٣٦ .

[٥٣]. السخاوي ، الضوء اللامع ،ج ، ص ١١٦ ؛ الدولاتلي ، مدينة تونس ، ص ٨٤ .

[٥٤]. ابن الشماع ، الأدلة البينة ، ص١٢٨ .

[٥٥]. جامع القصبة : هو الجامع الذي تم بنائه من قبل السلطان الحفصي أبو زكريا يحي (٦٢٧-٦٤٧هـ) سنة ٦٢٩هـ في مدينة تونس ، وانتهى منه سنة ٦٣٣هـ ، وقد سمي بهذا الاسم لأنه يقع في قلب القصبة ، ويسمى كذلك جامع الموحدين ، واختفت هذه التسمية وأطلق عليه الجامع الحفصي ، وعند اكتمال الصومعة صعد السلطان الحفصي أبو زكريا يحي بنفسه وأذن فيها .ابن القنفذ ، الفارسية ، ص١٠٩و١١٧؛ابن الشماع، الأدلة البينة،ص ٥٦؛ابن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد ،ص ١٥٧ .

[٥٦]. الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص١٣٦ .

[٥٧]. الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ١٣٦ .

[٥٨]. الزركسي ، تاريخ الدولتين ،ص١٣٦ .

[٥٩]. الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص١٣٦ .

[٦٠]. هنشير حمزة : محلة تقع جنوب مدينة تونس ، تتجمع بها المياه بطريقة ما ، مياه بئر القصبة، الدليمي ، مدينة تونس ، ص ٢٠٣ .

[٦١]. الدولاتلي ، مدينة تونس ، ص١٣٣ ؛ عجلان ، المساجد الجامعة ، ص٩٩-١٠٠ .

[٦٢]. الزركشي ، تاريخ الدولتين ،ص ١٤٣؛ ابن أبي دينار ، المؤنس ،ص١٧٨ .

[٦٣]. ابن الشماع ، الأدلة البينة ،ص١٢٦ .

[٦٤]. الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ١٣٦ .

[٦٥]. الادلة البينة ،ص ١٢٦ .

[٦٦]. السخاوي ،وجيز الكلام ،ج٣،ص١٠٦٢ ؛ ابن أبي دينار ، المؤنس ،ص١٧٨ .

[٦٧]. مدينة تونس ، ص ١٨٦-١٨٧ .

[٦٨]. الدولاتلي ، مدينة تونس ، ص ١٨٩-١٩٠ ؛ برنشفيك ، تاريخ افريقية في العهد الحفصي ، ج٢،ص٤٣٢ .

[٦٩]. زبيس ،سليمان مصطفى، حول مدينة تونس العتيقة، تونس،١٩٨١،ص٣٦ وص٤٥.

[٧٠]. ابن عامر ، الدولة الحفصية ، ص١٤١ .